

## المدرسة الإيلية

1/ سياق نشأة المدرسة الإيلية: في النصف الأخير من القرن السادس قبل الميلاد استعمرت مقاطعة أيونيا، فارتحل منها أعلام الفلسفة إلى إيطاليا مع من هاجروا إليها من مواطنيهم، فأسسوا بها عدة مستعمرات كانت إيليا - الواقعة في جنوب إيطاليا - واحدة من تلك المستعمرات التي أنشئ فيها مدرسة فلسفية، عرفت منذ العهد القديم باسم المدرسة الإيلية، غير أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أن المدرسة الإيلية سارت على نفس النهج الذي انتهجته المدرسة الأيونية، التي كانت مغرقة في المادة، إلى حد لم يدع لغير الطبيعة في فلسفتها مجالاً، لا ترى إلا أجساماً يطرأ عليها الكون والتحول والفناء، وتتعاورها الحركة والسكون، كما خالفت المدرسة الفيثاغورية التي أفرطت في اللامادية إلى حد المغالاة في اتخاذهم العدد أصل الكون، بل حولت مسارها - المدرسة الإيلية - إلى البحث فيما وراء هذا العالم الطبيعي؛ أي إلى البحث في الوجود، أو بعبارة أخرى، إلى البحث في ماهية الوجود ذاته.

وقد اختلف المؤرخون في المؤسس الحقيقي والفعلي لهذه المدرسة، فجزت عادة معظمهم على الحديث أن إكسنوفان هو المؤسس الحقيقي للمدرسة الإيلية، وبعضهم يرى أن إكسنوفان أعلن أصل المذهب، ثم وضعه بارمنيدس في صورته الكاملة، وجاء بعده زينون فنصب نفسه للدفاع عنه. والبعض يكتفي بالقول إنه معلم بارمنيدس رغم الاعتراف بأن الاتصال والتشابه بين فكرهما ضئيل جداً، بينما يرى الأهواني أنه لا يعدو أن يكون - إكسنوفان - من جملة الأحرار الذين آثروا هجرة أيونية حين شعروا بضغط المستعمرين عليها، مثله في ذلك مثل فيثاغورس. لكن فيثاغورس سلك حياة تختلف عن حياته ليقرر رجحان من قبل عدم تلمذة بارمنيدس لإكسنوفان وعدم أخذه عنه ليكون بذلك بارمنيدس هو المؤسس الحقيقي للمدرسة الإيلية لقد ظل هذا الخلاف شائعاً منذ القدم وإلى عصرنا هذا في حقيقة المؤسس الأول والفعلي للمدرسة الإيلية، غير أنه من المؤكد أن فكر إكسنوفان يختلف عن بارمنيدس، وإن

التقيا في الحديث عن الواحد، إلا أن مفهوم الواحد عند إكسنوفان هو الإله، وبذلك اعتبر واضع العلم الإلهي عند اليونان، بينما بارمنيدس كان الواحد عنده هو الوجود فكان بذلك فيلسوفا ميتافيزيقيا.

## 2/ الأفكار الكبرى الناظمة للمدرسة الإيلية

2-1/ التأكيد على أن المعرفة الحقيقية تكون عبر العقل لا الحس: لقد كان هم الإيلين إيجاد الثابت والدائم الذي يمثل الحقيقة وسط المتغير والمتحرك فحسب بارمنيدس " لا معرفة يمكن أن تتولد مما يتغير دائما" وبذلك فإن المتحرك والمتغير يمثل اللاحقيقة واللاوجود ". وعليه فغن هناك مسلكين للمعرفة طريقين : الأول : طريق اليقين، والثاني : طريق الظن. فطريق الظن هو طريق الوهم والزيف وسبب الزيف يكمن عدم قدرة من يتبع هذا الطريق على التمييز بين الوجود واللاوجود. وهو الطريق الذي حذرت منه الآلهة بارمنيدس من إتباعه، ثم إن بارمنيدس يهدف من تحديد طريق الظن نقد المدرسة الفيثاغورية التي جمعت بين النقائص فالذي يتبع طريق الظن يجمع بين النقائص ويصبح حاله حال فلاسفة المدرسة الفيثاغورية الذين هم جهلة على حد تعبير بارمنيدس لأنهم قالوا بثنائية المبادئ وفسروا نشأة الكون بامتزاج قوتي النور والظلام ومصدر هذا الطريق هو الحس والعادات اليومية التي هي نتاج التجارب المتكررة كل يوم والتي تقوم على اعتبار الحركة والنشؤ والفساد أشياء حقيقية وهناك مصدر آخر لهذا الطريق ألا وهو اللغة غير المناسبة للتعبير عن الوجود الواحد الساكن. فاللغة تجزئ الوجود الواحد وتعطيه أسماء متعددة، الماء والجبل والإنسان وتعطي الوهم بأن هناك ماهو قبل وماهو بعد أي بالماضي والمستقبل، ولهذا فان كل فلسفة بارمنيدس.

أما المسلك الثاني فهو مسكك الحقيقة ويمثله عالم العقل المتسم بالثبات والسكون والذي يمثل عنده الحقيقة المطلقة ويحق وصفه بالوجود ولما كان الثبات يعبر عن الحقيقة فإن الوجود

الذهني للأشياء هو الشيء الثابت وعلى ضوء ذلك فالمعرفة عقلية؛ وهي ثابتة كاملة، ووظيفية؛ وهي قائمة على العرف وظواهر الحواس، فالحكيم يأخذ بالأولى ويعول عليها كل التعويل ثم يلم بالأخرى ليقف على مخاطرها ويحاربها بكل قواه. وبذلك فالعقل هو وحده القادر على الوصول إلى حقيقة الأشياء وهي أن الوجود موجود واللاوجود غير موجود وأنه من المستحيل أن يكون الوجود واللاوجود شيئاً.

**2/ التوحيد بين الوجود والمعرفة:** والمقصود بذلك أن ما نفكر فيه موجود وما لا نفكر فيه غير موجود، فكأن الأشياء المحسوسة لا وجود لها في إدراكنا وأن ما يسمى كون وفساد وبداية ونهاية صور فحسب ويشير بارمنيدس إلى ذلك بقوله: أن ما يلفظ به ويفكر فيه يجب أن يكون موجوداً لأنه من الممكن أن يكون الوجود موجوداً ومن المستحيل أن يوجد اللاوجود، إني أمرك بأن تتأمل هذه الأمور" ولما كان الوجود قابل للتفكير فيه فهو موجود ولما كان اللاوجود في المقابل لا يمكن التفكير فيه فهو غير موجود" ولما كان الجمهور يفكر عكس ذلك يجب الابتعاد عن طريقة تفكيره

**3/ تحديد ماهية الوجود:** " لقد وجه الإيلين عامة وبارمنيدس خاصة مسار البحث الفلسفي فبعد أن كان البحث الفلسفي يبحث عن العلة الأولى للأشياء التي عدّها الطبيعيون الأوائل الماء والهواء والنار أو أنها الأعداد على نحو ما زعم الفيثاغوريون فقد أصبح البحث الفلسفي على أيدي الإيلين يبحث في ما وراء الوجود المحسوس إنه أصبح يبحث في ماهية الوجود ذاته (الوجود الحقيقي) والذي رسم ماهيته وأوصافه بارمنيدس في قصيدته الموسومة بالحق والظن ضمن كتابه الطبيعية فما هو الوجود الحقيقي عند الإيلين وأوصافه؟

يبدأ الفيلسوف الإيلي بارمنيدس قصيدته في الحق والظن حيث يشير إلى أنه سيبحث فيها عن الوجود الحقيقي والوجود غير الحقيقي. يقول: " جئت تبحث - هكذا تُحدث الآلهة

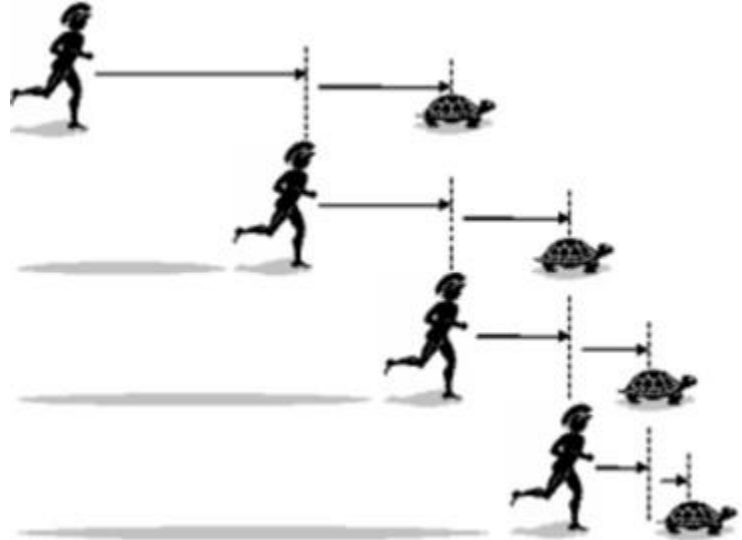
بارمنيديس - في كل شيء: عن الحق الثابت للمستدير، كما تبحث عن ظنون البشر الفانيين التي لا يوثق بها. ولكنك تعلم أن تعلم هذه الأمور أيضا (أي الظنون)، كيف تنظر في جميع الأشياء التي تظهر) أي المظاهر) وتبحث فيها" نستنتج من ذلك أن بارمنيديس يعتبر الوجود الحقيقي هو الثابت والوجود غير الحقيقي هو الظن وخداع البصر. وهذا نفس ما نسبته أرسطو طاليس في مؤلفه " الطبيعة " إلى بارمنيديس، عندما صنفه ضمن الفلاسفة القائلين بأن المبدأ الأول لا يتحرك. يقول: " وقد يجب أن يكون المبدأ إما واحدا، وإما أكثر من واحد. وإن كان واحدا فإما أن يكون غير متحرك على مثال ما قال بارمنيديس ومالسييس، وإما أن يكون متحركا على ما قال الطبيعيون. فقال بعضهم إن المبدأ الأول هواء، وقال آخرون إنه ماء " .

وعلى هذا النحو فإن الوجود عند الإيلين شبيه بالكرة المستديرة المتساوية الأبعاد عن المركز، وبهذا الاعتبار فلا بدأ لها ولا نهاية لأن الكثرة أكمل الأشياء، فهو وجود مطلق غير متعدد لا يضاف إلى شيء" ويقوم مفهوم الوجود عند الإيلين على أصلين أساسيين وهما الوحدة والثبات والمقصود بالواحد هنا (الوحدة) لأنه لا شيء من غير الوجود ولأن التعدد لا يمكن إلا أن يفترض حاجة للوجود إلى أن يتعدد أي شيء غير موجود أي أن التعدد لا بد أن يفترض اللاوجود (العدم أو الخلاء) والوجود واحد من حيث أنه غير قابل للقسمة فمن أهم خصائصه أن هو هو فالوجود لا ينقسم إلى أجزاء ويكون بعضها أقوى من الآخر، أو يوجد بينها أي تراتبية. ونتيجة لذلك سيوصف الواحد هذا بأنه كامل متناهي الوجود كامل متناهٍ أي لا ينقصه شيء، والتمام يكون من حيث التعيين والتناهي، فهو يظل دائما في قيوده أي في حدوده في نفس الحال وباقيا بنفسه (أي بدون الحاجة إلى أي شيء) ويضيف بارمنيديس " فلا يمكن أن يكون الوجود لانهايا غير محدد ذلك إنه لا ينقصه شيء ولو كان نهائيا إذن لا احتاج إلى كل شيء

أما الأصل الثاني وهو الثبات فيراد به فلقد رفض بارمينيدس القول بتغير الوجود الذي نادى به هيراقليطس والطبيعيون الأوائل وأكد على ثباته، لأن القول بالتغير يعني الانتقال من الوجود إلى اللاوجود وبالتالي فكل تغير حسب بارمينيدس هو من تغير الوجود إلى الوجود ، ومعنى هذا أن الأيونيين السابقين عليه كانوا يزعمون أن الحركة والتغير هما الطابع العام للوجود، وأشاروا كذلك إلى أن السكون يحتاج إلى التفسير والدراسة وهذا الرفض للحركة عند الإيلين مرده أن الحركة تفترض النقص وتفترض اللاوجود ( الخلاء والفراغ والعدم ) ونتيجة لذلك فهو متصل بالحركة تفترض ما هو قبل وما هو بعد : فلا يمكن القول إن الوجود حسب ما أكده بارمينيدس أنه كان أو إنه سيكون " فإذا لا ماض للوجود ولا مستقبل، لأن الماضي يفترض النشأة والمستقبل يفترض الحركة " ولا يقبل وفق وجهة البارمينيديين سوى الحاضر المطلق عن هذا الأمر تنبثق خاصية القدم للوجود وهو بذلك ينفي أن يكون مخلوقاً، فمن المستحيل أن يكون الوجود حادثاً، أي أنه مخلوقاً، كما أنه نفي أن يكون له مستقبل أو ماضٍ، على الرغم من قدمه إلا أنه ركز على أن دراسة حاضر الوجود، وهذا الحاضر غير خاضع للزوال، وبناءً على ما سبق فإن الفساد لا يمكن تصوره.

ليأتي بعد هذا تلميذه زينون حيث ركز عمله الفلسفي على رفض التغير لدعم نظرية بارمينيدس، وتحديدًا على التغير الذي يصدر عن الكائنات الحية، أي الحركة. مع العلم أن هذه النظرة الفلسفية كانت تتواجه مع نظرة هيراقليطس صاحب مقولة «لا يمكنك أبدًا أن تخطو في نفس النهر مرتين»، ما معناه أن العالم في تغيرٍ دائمٍ. يروي زينون في مفارقة أخيل والسلحفاة عن المحارب أخيل بأنه في سباقٍ على قدميه مع السلحفاة. يسمح أخيل للسلحفاة ببداية السباق أن تكون متقدمةً عليه بمسافة مئة متر، على سبيل المثال. فلنفترض أن كل متسابقٍ يبدأ في الجري بسرعة ثابتة، حيث تكون سرعة أخيل أكبر من سرعة السلحفاة طبعًا. بعد مرور بعض الوقت، سيكون أخيل قد ركض مئة متر ليصل إلى نقطة انطلاق

السلحفاة، النقطة الأولى. خلال هذا الوقت، تكون السلحفاة قد ركضت لمسافة أقصر بكثير، لنقل مترين. والآن، سوف يتوجب على أخيل ركض تلك المسافة للوصول للنقطة الثانية للسلحفاة، وفي ذلك الوقت ستكون السلحفاة قد تقدمت أكثر بمسافة أقل من مترين لتصل إلى نقطةٍ ثالثة. وعن جديد، سوف يكون أخيل بحاجةٍ للمزيد من الوقت للوصول إلى هذه النقطة الثالثة، بينما تتحرك السلحفاة للأمام. وهكذا، كلما وصل أخيل إلى نقطةٍ ما كانت فيها السلحفاة، لا يزال أمامه بعض المسافة ليقطعها قبل أن يتمكن من الوصول إلى نقطة تواجد السلحفاة. وهذا نظريًا سيتكرر إلى ما لا نهاية من دون أن يصل أخيل إلى السلحفاة ويربح السباق، وهذا يعود إلى أنّ مهما كانت المسافة قصيرة، فهي قابلةٌ للتجزئة.



هناك طريقةٌ أخرى لعرض هذه المفارقة، وهي على الشكل التالي: لكي يتحرك جسمٌ معينٌ إلى نقطة 'أ'، لا بدّ له قبل ذلك أن يصل إلى النقطة 'ب'، وهي منتصف طريقه إلى 'أ'، ولكي يصل إلى 'ب' يجب أن يصل أولاً إلى النقطة 'ج' التي هي منتصف طريقه إلى 'ب'، وهكذا إلى ما لا نهاية تنقسم كل مسافةٍ إلى نصفها. وبما أنّ هذه السلسلة من الخطوات المطلوبة لا نهاية لها، فهي تتطلب قدرًا من الوقت لا نهاية له للقيام بها. لذلك السبب، يستنتج زينون أنّ تحرك أيّ جسمٍ إلى أيّة نقطةٍ في زمنٍ محدّدٍ هو أمرٌ مستحيلٌ نظريًا.

أما المفارقة الثانية لنفى الحركة فهي مفارقة السهم حيث لا يمكن للسهم ان يتحرك، فإذا فرضنا أن المكان والزمان مكونان من أجزاء فان أي شيء يكون في حالة سكون اذا ما كان في مكان مساو لحدوده، وكذلك السهم فإنه يحتل في أية لحظة معينة مكانا مساويا لحدوده، إذن فالسهم الطائر هو في الحقيقة ساكن وليس متحركا وليس هذال مقبولا.